المثقف الشاعر مفدي زكريا.. المكانة والدور تاريخيا وراهنًا"

د.عامر رضا
المركز الجامعي- ميلة

الملخص

لقد كانت الثورة الجزائرية، ومازالت ملهمة الشعراء الذين سخروا أقلامهم وحياتهم ثمنا للإنعتاق من قمع الاستعمار الغاشم أينما كانوا ووجدوا، فكان من بين هؤلاء الشعراء الشّاعر الجزائري المجاهد"مفدي زكريا"،الذي شارك في الثورة التحريرية بشعره بكل فنياته اللّغوية،ومضامينه الدلالية،كما بقي نموذجا وفيا للمثقف الشّاعر في البحث عن آليات التغيير،والمساهمة فيه على كلّ الأصعدة حتى ساهم بشكل مباشر في نهضة أمته الجزائر.

الكلمات المفتاحية: ثورة، الجزائر، مفدي زكريا، المجاهد، المثقف،الأمة، الشّعر.

Abstract

It was the Algerian revolution and is still inspiring poets who mocked their pens and their lives for the emancipation from the oppression of colonialism brutal wherever it was found, it was the poets Algerians, including the revolutionary poet, Moufdi Zakaria" participate in the revolution, his hair all over the place inside and outside the country, also remained a model the VIA cultured poet in

المنارة للاستشارات

the search for mechanisms of change, and contribute to it on all levels, even directly contributed to the renaissance of the nation Algeria .

Key words: *revolution, Algeria, redeemed Zakaria, warrior, intellectual, nation, hair.*

أ- مشكلة البحث:

لما كانت الثورة التحريرية المباركة هي الوسيلة الفعالة الوحيدة لمواجهة الاستعمار الفرنسي في ظلّ التغيرات والتحولات العالمية من أجل حرية الشعوب،كان دور المثقف الجزائري لا يقلّ جدارة،وأهمية عن نظيره المجاهد بالسلاح لمواجهة طغيان،وبطش المستعمر الفرنسي بحثًا عن كرامة الإنسان الجزائري بما يخدم مصلحة الأمة الجزائرية، ويحافظ على بقائها واستمرارية وجودها ،فإنّ الحاجة تبدو ماسة لتربية جيل من المثقفين قادرين على مساندة "تحديات الثورة الجزائرية"من جهة في ظلّ أزمات المنطقة العربية والإفادة منها من جهة أخرى،من خلال تربية جيل مثقف واعٍ يستطيع صناعة مستقبل ثقافي يحمي هويتنا الثقافية والتاريخية،والحضارية في ظلّ التحديات المتنوعة، وعليه يمكن تحديد مشكلة البحث في السؤال الآتي:(إلى متى سيظلّ المثقف الجزائري واعيا بمسؤولياته ومحتوياتها الثقافية والحضارية في ظلّ الأزمات التي تعصف بالمنطقة العربية، ؟).

ب- فرضيات البحث: يستهدف البحث وضع الفرضيات الآتية:

1. التعرف على دور المثقف المبدع في الدفاع عن هويته الثقافية،وتمجيدها، والدفاع عليها.
2. التعرف على أهمّ الآثار المختلفة للمثقف الجزائري، وبصفة خاصة "شاعر الثورة الجزائرية: مفـدي زكريا".
3. التعرف على أهمّ المحددات والتوجهات الرئيسة للمثقف الجزائري الحالي،ودوره في راهن الأمة المعاصر.

المنارة للاستشارات

جـ- أهمية البحث :يمكن أن يفيد هذا البحث في الآتي:

1- إنّ هذا البحث يفتح المجال أمام دراسات أخرى تهتم بدور المثقف في راهن أمته ،وأثر ذلك على الجانب التاريخيّ،والحضاري للشعوب. 2- هذا البحث يحاول سد النقص في ميدان البحث العلمي في مجال صراع المثقف مع واقع الثورات الشعبية،والأزمات التي تشهدها المنطقة العربية.

3- إنّ ما ستسفر عنه الدِّراسة الحالية من نتائج قد يساعد في توفير حلول ناجعة هادفة تؤدي إلى إبراز الدور المثالي،والحقيقي للمثقف الجزائري نحو أمته للتخفيف التدريجي من حدة الاضطرابات والمشكلات الناتجة عن عدم تطوير الثقافة المحلية للمجتمع من جهة، وتفعيل هوية المثقف العربي لمواجهة كلّ الأخطار التي باتت تهدد كيان الشّعوب العربية من جهة أخرى.

د- هـــدف البحث: يهدف البحث إلى إبراز الآثار المختلفة للمثقف العربي وبصفة خاصة الشّاعر الجزائري"مفدي زكريا" على المجتمع فكريا،وحضاريا وتاريخيا،ودور المثقف في راهن أمته.

هـ- حدود البحث: تنحصر حدود هذا البحث في المحددات التالية:

1. الحدود الموضوعية: حدود الدِّراسة موضوعياً بأنها تركز على الأدوار الفكرية،والحضارية للمثقف الجزائري لمواجهة تحديات وتأثيرات مابات يعرف بالربيع العربي، للحدّ من تبعاته في راهن الأمة الجزائرية بشكل خاص.

2. الحدود المكانية: سوف يتم التركيز على المثقف الجزائري،وبشكل خاص المثقف الشاعر"مفدي زكريا"،وما قدمه للثقافة الجزائرية تاريخيا/حضاريا/فكريا.

3. الحدود الزمانية: تم إجراء هذا البحث خلال العام الدّراسي 2014م.

المنارة للاستشارات

و- منهج البحث:

سوف تستخدم هذه الدراسة المنهج الوصفي،والتاريخي من خلال جمع بيانات وصفية، وليس بالضرورة توضيح علاقات أو اختبار فرضيات والقيام بتنبؤات أو التوصل إلى معان ومضامين، رغم أنّ البحث يهدف إلى التوصل إلى تلك الأهداف،وسيتم تتبع ظاهرة المثقف الجزائري من خلال الثورة التحريرية المباركة لمعرفة بعض الحقائق عن واقع المثقف فيها وأثر ذلك على تاريخنا النضالي،وما صادفه المثقفون من إشكالات على مستوى الأفكار أو على مستوى المبادئ الثورية العربية وقيمها الحضارية والثقافية، بالإضافة إلى تقديم رؤية المثقف،ودوره نحو أمته والتحديات التي تواجه هذه الأدوار حاليا في ظلّ التوترات الداخلية،والحراك العربي الذي بات خطرا يمسّ بالشعوب،والأمم العربية بشكل خاص.

ز- الدِّراسات السابقة:

في هذا الجزء من البحث سوف يتم عرض نماذج لبعض الدِّراسات والبحوث، والتي لها ارتباط مباشر بموضوع دراسة وتنظيرًا،وهذه الدِّراسات هي كالآتي:

1- دراسة أحمد سالم الأحمر(1990):

عنوانها(المثقف العربي... واقعه ودوره)، مجلّة الوحدة، المغرب، ع66.

2- دراسة عزمي بشارة (2013م):

وعنوانها (عن المثقف والثورة) مجلة تبيّن، قطر،ع04 .

3- دراسة العربي دحو (2003م): وعنوانها (الشعر الجزائري والثورة التحريرية)، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية،منشورات جامعة سطيف، ع03.

وعموما لقد استفاد البحث الحالي من هذه الدِّراسات في وضع الإطار النظري للبحث،والمتعلق بدور المثقف العربي في راهن مستقبل أمته

المنارة للاستشارات

وإشكالية الثقافة كصورة تستدعي من القائمين عليها بث الوعي الفكري،والقومي لحماية التراث الفكري،وتنوير العقول بما يحيط بها من أخطار باتت تهدد كيان الأمّة،وذلك بوضع المحددات والتوجهات الرئيسية للمثقف العربي،وربطه بتاريخ ثقافته الوطنية من أجل تحقيق التوازن الفكري بين أصالتنا من جهة،والغزو الثقافي القادم إلينا عن طريق العولمة الثقافية كخطر يتربص بالشعوب،والأمم من جهة آخرة.

❖- مقدمـــة:

إنّ الشّعر الثوري الجزائري بكل فنياته وتجلياته بات يشكل زخمًا ثقافيا جادت به مختلف قرائح الشّعراء مواكبين به كلّ المآسي والآلام التي شهدوها أو شغلت تفكيرهم باستمرار إبّان الفترة الاستعمارية الفرنسية الغاشمة،والأهمّ من ذلك كلّه ما تكبده الشاعر الجزائري في خمسينيات القرن الماضي من تحدّي، وصراع عنيف مع الاستعمار الفرنسي من جهة،ونقل المشهد السياسي المشحون ثقافيا ،والذي انعكس على واقعه المعيش من جهة أخرى،إذْ نهض هؤلاء الشّعراء من رماد الثورة مشاركين في الذود عن أوطانهم بكلّ ماجادت به قرائحهم من صور شعرية تعكس المعاناة والمعارك التي صورت هوية الشاعر والمثقف والسياسي والمواطن الجزائري للوقوف في أوجه المسخ، والتقزيم والاضطهاد بشتى أشكاله الذي شنه الاستعمار الفرنسي على كلّ أطياف المجتمع الجزائري حينها.

حقًا كانت"القصيدة الثورية الجزائرية" تخوض غمار التأصيل والتأسيس الفني مبرزة حالات الصراع الفكري التاريخي مع الاستعمار الفرنسي حينها،إذْ نهض العديد من الشّعراء الجزائريين الذين شغلتهم الثورة، وشَغلوا العالم بها،خاصة شاعر الثورة الجزائرية " مفدي زكريا" الذي ألهم العالم بشعره وثورته ووطنيته التي ليس لها حدود،فكانت الدّراسة حول شعره

المنارة للاستشارات

الثوري الوطني الذي ألهم العالم وخاصة الباحثين والمثقفين الذين وجدوا في شخصية "مفدي زكريا"الإنسان الثوري والرمز البطل العاشق لوطنه حتى الثمالة،فكان شعره مصدرا للنهل منه والقرض على منواله في رسم طريق الحرية،و الإنعتاق من قيود الاستعمار البغيض،الذي أذاق المجتمع الجزائري بكلّ أطيافه آلام التنكيل والتقتيل والتشريد،فانطلقت حناجر الشعراء تندد بجرائم المستعمر وتدفع بالشعب الجزائري إلى طلب الحرية.

❖- المحور الأول: دور المثقف في النضال الثوري

يُعَدُّ الشّعر من أرقى أنواع الفنون الأدبية حيث تنطلق فيه نفسية الأديب نحو الإبداع وتقدم رؤية الأديب لواقعه بصورة فنية، جمالية يتواصل بها مع مجتمعه» في عالم الجمال،والوجدان لأنه يرى الأشياء والأحاسيس رؤية طازجة، ليست نظرته وليدة المنطق،أو العلم ولكنها وليدة الحدس،وليست أدواته هي التحليل والتركيب، بل هي الخيال المضيف«(الكركي،خ. 1989: 21)،وقد يستعير المبدع بعض أدواته السياسية ومعانيها ورموزها وتواريخها وشخصياتها من أجل تبليغ رسالة ما للمتلقي الذي يساهم في التفاعل مع المثقف سياسيا دون دراسة منه كالتحفيز للثورة، أو مراسيم التأبين للشخصيات السياسية أو الرفع من قدر شخص سياسي ما أو الحط من قدره .

وعليه تعددت إشكاليات الصراع "الثوري السياسي" الذي خاضه الشاعر الجزائري أثناء ثورة التحرير المباركة وكيف استطاع هذه الأخير من خوض غمار البحث عن الحرية،والمشاركة في أخطر المهام البطولية ،وكيف أقدم على اكتساب التقدير والاحترام لبطولاته الثورية من كافة أطياف الشعب الجزائري،والتاريخ يذكر لنا العديد من بطولات الشعراء الجزائريين بداية من "الأمير عبد القادر الجزائري" ،إلى "عبّان رمضان"،وعبد الكريم العقون

المنارة للاستشارات

" إلى"محمد العيد آل خليفة، عبد اللّه شريط، أبو القاسم سعد اللّه..إلخ"، وعليه كلّ هؤلاء المثقفين الثوريين خاضوا رحلة تنوير شعبهم،من خلال بثهم للوعي الثقافي للثورة مؤكدين على دورهم في تحرير وطنهم من رهن الاستدمار الفرنسي بشتى الوسائل المشروعة بداية ،من النضال بالسلاح إلى النضال بالقلم،وغير ذلك من الأعمال الجليلة التي كانت تلقى الثناء والترحيب من قبل الشعب الجزائري الذي كان في أمس الحاجة لمن يأخذ بيده إلى أبواب الحرية والاستقلال من بطش الاستعمار الفرنسي الغاشم.

1- 1. بواعث الشّعر الثوري:

عندما نُقْرِن الشّعر بالثورة المسلحة فنحن في حقيقة الأمر أمام متعتين:متعة الفنّ الشعري بخياله وتصويره وموسيقاه،ومتعة الموضوع بزخمه وهوله وروعة المشهد،وما خلفه من آثار عميقة في نفوس الجزائريين،فهذا هو حال الشعراء مع الثورة الجزائرية العظيمة التي أذهلت العالم ببطولات أبنائها،ورسمت للجزائر لوحة عزّ خالدة لا تؤثر عليها العوامل والمتغيرات،ومهما يكن من أمر،فإنّ عظمة الثورة الجزائرية تعدّ محطة من محطات الإبداع الشعري العربي،ومصدرا مهما من مصادر الإلهام ورغم كل ذلك، يبقى شعر الثورة الجزائرية سجلاً تاريخيًا هامًا في توثيق بطولات وأمجاد الثوار والمجاهدين الذين قدموا أنفسهم قرابين لحماية الوطن،واسترجاع كرامته، فقد تعددت مناقبه ومواضعه من تمجيد للشهداء،ورفضه لأساليب الاستعمار الفرنسي المحتل الغاصب وحث للشعب الجزائري الثائر على الصمود والمواجهة، وذمه لجرائم الاستعمار ضد العزل من الأطفال والنساء والشيوخ، وكشفه الخونة وغيرها من المواضيع التي أبدع فيها الشاعر الجزائري، وبقدر ما تشرفت ثورتنا المجيدة بجهود الشعراء فقد تشرفوا هم كذلك بها، وهذه هي النتيجة الطبيعية لتلاحم شعر الثورة مع الأحداث التاريخية الجليلة ومواكبتها ليبقى

المنارة للاستشارات

الشعر شاهدا عليها،ومواكبًا لأحداثها التي عايشها الشعراء وتجرعوا مراراتها نحو: المثقف" مفدي زكريا" شاعر الثورة الجزائرية وصانع أمجادها وبطولاتها،وعليه فقد تنوعت بواعث الشعر الثوري الجزائري إلى باعثين: سياسي واجتماعي.

أ- الباعث السياسي:

يجدر بنا الوقوف عند الباعث الثوري السياسي الذي كان هدفا للعديد من الشعراء، فالنزاع المسلح مع الاستدمار الفرنسي كان سببا في الحث على الجهاد باعتباره أفضل العبادات وأشرف موت في نظرهم خاصة الموت في ساحة الجهاد،والاستشهاد في سبيل الله والوطن،وهذا ما جعل المعجم الشعري غنيا بكلّ المعاني،والعبارات الثورية الدالة على شرف الجهاد والداعية إلى أخذ الاستقلال، فالعلاقة بين الأدب والسياسة خصبة ومعقدة، وليس» للسياسة في الأدب أن تحصر بالمعنى التقني فذلك ينفي الأدبية، السياسة في الأدب تحصر بمعناها التاريخي أي بما هي أشكال لوعيه وممارسته الحياة الاجتماعية،والأدبية ليمارس السياسة في إنتاجه ولكن بأدواته،(...) وما أصعب ذلك عندما يكون الشعر هو أداة الرؤية« (سليمان،ن، 1985: 93)، كما إنّ تطور الأحداث السياسية في بداية الخمسينيات والتي توجت باندلاع الثورة المظفرة دفع الشاعر الجزائري إلى رفض البقاء معزولا عما يجري من أحداث سياسية بل أنّه أصرّ على المشاركة فيها بشكل واضح ومباشر وأن يسجل وجوده عمليا في ثورة "نوفمبر 1954م" فكان عليه أن يضطلع بواجبه في العمل الثوري بجانب المجاهدين، من خلال تنظيم صفوفه وتجنيد قريحته الشعرية في تخليد تاريخ الثورة ونضالها السياسي والمسلح معا في ثنائية حتى يتحقق النصر على أيدي الثّوار.

المنارة للاستشارات

أمّا في فترة الاستقلال،فقد انتشر صمت رهيب أصاب كبار الشعراء الذين واكبوا الثورة، حيث يقول عبد المالك مرتاض في هذا الصدد» لانجد له علة شافية ولا إجابة مقنعة، مثل مفدي زكرياء وأبي القاسم خمار ومحمد الصالح باوية....فلما تحقق الشيء الذي كان يبدو لهم مستحيلا ،وهو خروج الاستعمار الفرنسي من الجزائر مقهورا مدحورا،ورفعت الراية الوطنية فتحت لهم أبواب الوظائف على مصراعيها « (مرتاض،ع. 206 :86) ،ومن ثم هجروا الشعر، فلم يعد الوطن يستحق التغني أكثر مما يستحق العمل ،كما نجد من جهة أخرى التعبير عن مرارة الخيبة لدى شعراء السبعينات والثمانينات،وحتى جيل التسعينيات من القرن الماضي ،وهذا ماعكسه شعر "مفدي زكريا."

إنّ المثقّف في المطلق معرّض لكلّ أشكال التسلط والتهميش وتبعاتها لأنّه يمتلك دوما رؤية مغايرة للسّائد ولما هو مطروح، فقد تكون رؤيته طوباويّة،ولكنّه يظلّ دوما في قطيعة مع الشّيء المعتاد ولا يعني ذلك البتّة تجاهله للحراك الاجتماعي والسّياسي لمجتمعه بل إنّ انخراطه في هذا الحراك يكون بعين النّاقد فهو لا ينشد التّغيير من أجل التّغيير وإنّما هو يبحث عن التّأسيس من خلال رؤيته لما هو أفضل،ولذلك فهو يتوجّس خيفة من السّلط جميعها،ولاسيّما السّلطة السّياسيّة التي خيبت أمله في الحياة داخل وطن يسوده الحبّ ،والتسامح مع تجنّب الوقوع في شراك الفتن،وحمم المناصب والكراسي التي شكلت هاجس ومختلف المؤامرات التي طبعت فترة الاستقلال حينها ،فما كان من المثقف الجزائري سوى أن يحبس قريحته الشعرية خاصة بعد أن وقع الكثير من المثقّفين العرب في سحر السّلطة، وعبثيتها، فكانوا ضحايا وظّفتها الأنظمة الاستبداديّة لتلميع

المنارة للاستشارات

صورتها القبيحة ففقدوا بذلك تألقهم ومنزلتهم وتآكل رصيدهم الرّمزي أمام شعوبهم خاصة الشعراء منهم.

ب- الباعث الاجتماعي:

والشّاعر الجزائري في نهاية المطاف»مسؤول عن تقدم مجتمعه وتأخره باعتباره مشاركا فيه متأثرا به مؤثرا فيه« (عامر،ر.،2008م: 107)،وعليه كان الشاعر الجزائري يذود عن وطنه أيام السلم والحرب،ولاتثني عزيمته أية معضلة فهو بمثابة الصحفي في نقل الأخبار وتفنيدها،انطلاقا من أنّ الشعر الثوري الجزائري تميز بالروح الوطنية والدفاع عن الحرية والكرامة، فكان السجل الصادق للنبض الاجتماعي والثقافي والديني، حيث سجل الكثير من الحوادث التاريخية، فتابع معارك جبهة التحرير الوطني السياسية والمسلحة في كامل ربوع الجزائر مسجلاً انتصاراتها وهزائمها، وحارب الظلم والطغيان بكل أشكاله الذي شنه الاستعمار وعملاؤه من المرتزقة،والخونة وصور تلك المشاهد بدافع الحماس المشبع بوطنية الجزائر.

1- 2. مواضيع الشّعر الثّوري:

انطلاقا من الإيمان الراسخ بدوره الفعال في كلّ الجبهات، أدرك الشاعر مسؤوليته الجسيمة، فنهض وقاوم داخل صفوف الثورة المسلحة بنظمه الشعر بكل عزم وتصميم وإرادة صلبة تعزز صفوف المجاهدين وتلهم كفاحهم في الأرياف والمدن بقصائد نضالية تحكي عن ثورتهم وأمجادهم الخالدة ،وبسالتهم في معارك الشرف ضدّ الاستعمار الفرنسي، وهذه هي النتيجة الطبيعية لتلاحم المثقف الشاعر الثوري الجزائري مع كافة الأحداث التاريخية الجليلة ومواكبتها ليبقى الشعر شاهدا عليها من خلال نظم قصائد ثورية ،وتقريبها من الثوار الشباب » بعثا للأمل وحشدا

المنارة للاستشارات

للهمم،وتحريضا على الجهاد،وعزفا على أوتار العاطفة بذكر حال الثكالى واليتامى والجنود للتحفيز على المضي قدما في مواجهة ظلم ووحشية الاستعمار الفرنسي« (حمزازي، س.1980م: 81).

فالثورة التحريرية قد تجاوزت النظرة النمطية التي كانت تنادي بها بعض الأحزاب التي كانت في الساحة الوطنية من إدماج ومساواة وتقسيم الجزائر وغيرها من المساومات التي انتهجها بعض أنصاف الوطنين،وفرضت عليهم من طرف جهات وصية أو كانت ضمن اللعبة السياسية وقتها،فكل ذلك لم يخمد نيران الثورة الجزائرية، بل ظلت مشتعلة تنشد الحرية مهما كان الثمن ،فكان الشعر يساير الثورة بوعي ومسؤولية تاريخية عظيمة فتعددت المواضيع الشعرية من(التغني بالوطن- التغني بالحرية- الدفاع عن مبدأ الاستقلال- الانتماء العربي الإسلامي- اللغة العربية- التأريخ للبطولات والمعارك- تمجيد الثوار في معارك الشرف،بث الوعي بمختلف أشكاله،نقد الحكم...)،وغيرها من المواضيع الثورية التي طرقها الشاعر الجزائري.

❖- المحور الثاني: دويّ الوطن والثورة في ثقافة مفدي زكريا عندما يرسم الشّعر الثوري الجزائري صورا عن ثقافة الثورة الجزائرية المسلحة،فإنّه يقدّمها بصورة واقعيّة مبتعدا إلى حد كبير،عن المبالغة والتضخيم أو المثالية وغالباً ما يعود في تقديمه لشخصيات الثوار إلى الظروف التاريخية،والاجتماعية التي رسمت شخصية البطل الثوري، وقد يستعير المبدع بعض أدواته السياسية ومعانيها ورموزها وتواريخها وشخصياتها من أجل تبليغ رسالة ما للمتلقي الذي يساهم في التفاعل مع المثقف سياسيا، وتحفيزه للقيام بالثورة»والدارس لشعر مفدي زكريا في مختلف مراحله يلاحظ تلك الناحية الثورية في أغلب قصائده،سواء منها تلك التي نظمها في

المنارة للاستشارات

زنزانات السجون خلال ثورة التحرير الكبرى، أو التي كان قد نظمها قبل ذلك والتي تعد إرهاصا ودعوة ثم تبشيرا بالثورة« (فاضل،ن. 1980م: 81).

والمتتبع لتاريخ الثورة الجزائرية المجيد يجد أنّ النضال الثقافي الثوري بقي متواصل بشكل دوري منذ أول يوم بدأ فيه المستعمر باحتلال الجزائري بداية من تاريخ"1830م" حتى عهد بداية المقاومات الشعبية التي غزت ربوع الجزائري وصولا إلى انطلاق الثورة المسلحة التي دامت سبع سنوات ونصف عجافا، دفع الشعر الجزائري والشعب ثمنا غاليا من أجل الحرية» فلم يجد الشعر الجزائري مجالا خصبا لانطلاق وجدانه مثلما وجده في الثورة المسلحة،فعلى مدي سبع سنوات ونصف كانت الأحداث تتوالى والصور تتنوع،فوجد فيها الشاعر المجال الواسع الخصب«(فاضل،ن. 1980م: 108)، فكانت حينها الثقافة الشعرية لشاعر الثورة الجزائرية "مفدي زكريا" تنقل الأحداث،وتصور البطولات وتصور المعارك وتمجد الأبطال في ساحات الوغى جنبا إلى جنب مع الثوار، الذين تعددت آهاتهم ومصائبهم بداية من فقدان الولد والزوج والأرض والعرض إلى التحدي والصمود للكيان الفرنسي في ساحات الشرف من أجل استقلال الجزائر،فكان" مفدي زكريا" الإنسان ينشد الحرية شعرا.

2- 1. مفدي زكريا الشاعر المثقف/ البطل الثوري:

لقد دفعت الثورة الجزائرية جيل الشعراء إلى إثبات ذواتهم في الحياة الفكرية والسياسية،وهي التي أفرزت جيلاً من الشعراء الوطنين التزموا بقضية الثورة،حيث كان الشاعر الرمز" مفدي زكريا 1908م-ت1977م" شاعرا فاق غيره في هذا الميدان حين شارك وتفاعل مع الثورة قبل أن تضرم نيرانها،فأضحت هي هدفه ينشدها في كل حفل ومهرجان،وبرز ذلك في دواوينه كـ" اللهب المقدس،إلياذة الجزائر"،» التي نلمس فيها تلك

المنارة للاستشارات

الصور العارية لوجه الجزائر الحقيقي التي عانت من ويلات الاستعمار وقهره«(فاضل،ن. 1980م: 154).

لقد كانت أخلاق"مفدي زكريا" نضالية وليدة الحرية النابعة من ضميره وإيمانه وتجربته الشعرية المؤججة بنيران الثورة، موّجها طاقته الإبداعية لحياة أفضل حياة حرّة في ظلّ العدالة الإنسانية،التي رسم طريقها النظم الذي تقدس بحرية الجزائر إلى أقصى الحدود ،حيث تناغمت في قصائد الحرية مع الإيقاع الجمالي اللامتناهي الممزوج بطابع صوفي يترجى الحرية،وقد ضرب شعر مفدي زكريا أروع النماذج الفنية والتاريخية التي احتفى بها الشعر الثوري العربي قي ظلّ الحراك الثوري العربي الذي شهدته المنطقة العربية مع نهاية خمسينيات القرن الماضي.

وعليه فقد لعب شعر "مفدي زكريا" دورًا بطوليًا في تقديم صورة الثورة الجزائرية بشكل يليق بها محليا ودوليا،كما قد أعطى للشّعر الثوري الجزائري مكانة عظيمة،فهو أحد أبرز المساهمين في حركة الشعر الجزائري الحديث، وفي مسيرة التاريخ الشعريّ الجزائري بشكل عام، إذ كانت حياة الشاعر الممتدّة زمنيا بين(1908م/1977م) حياة حافلة، بمختلف أساليب الكفاح الثوري بداية من بلدته بني يزقن مسقط رأسه بغرداية مرورا بتونس، ثم الجزائر العاصمة ثمّ دول المشرق العربي ليلخص بها مسيرة حرية شعبٍ أراد الحياة والتحرر من أغلال الاستعمار الفرنسي، ولعلّ أبرز إسهاماته في ذلك ديوانيه:"اللهب المقدّس" و"الإلياذة" التي لخص فيها ثورة الشعب الجزائري من أجل الحرية والاستقلال،وبذلك ضرب لنا مثلا في حياة الصمود، والدفاع عن وطنه شعرا نفحاته الجزائر،وقد أعطى الدروس تلو الأخرى للدول العربية المناضلة في سبيل الحرية حتى يتسنى لهم الإقتداء به،واتخاذه رمزًا ثوريًا عربيًا للمقامة.

المنارة للاستشارات

2- 2. مشاهد الثقافة الثّورية في شعر مفدي زكريا :

لقد تنوعت المشاهد البطولية في عيون شعر مفدي زكريا من خلال وصفه لمختلف نماذج الجهاد وبطولات نضال الثوار الجزائريين بداية من استشهاد البطل الرمز"أحمد زبانه" إلى تحدي "مفدي زكريا" لجنرالات فرنسا ووصولا إلى مشاهد تحديات المرأة الرمز"جميلة بوحيرد" التي ألهمت الشعر العربي باستماتتها في سبيل الحرية،كل تلك النماذج كانت قبسًا خصبا للشاعر الجزائري من خلال التأريخ لبطولاتهم وصبرهم في سبيل كرامة الشعب الجزائري،والعلم "مفدي زكريا" كان من أكثر الشعراء تأثرا ببطولات الثوار لأنه ذاق مرارة السجن والتعذيب خاصة عندما يصرح بأنّ الثورة الجزائرية كتبت بالدم فهو صادق في قوله ونظمه خاصة ديوان "اللّهب المقدس" و"الإلياذة" اللّذان يحكيان ويؤرّخان لمسيرة الثورة وتؤرخ لها ،وهذه بعض المشاهد الشعرية الثورية التي خلدها مفدي زكريا:

أ- مشهد ثقافة البطولات الثّورية:

تاريخ الجزائر الثوري مليء ببطولات المجاهدين خاصة من عهد "الباي أحمد" إلى "الأمير عبد القادر" الجزائري وصولا إلى الشاعر والمجاهد مفدي زكريا لـ« ترفرف شخصية البطولة على الشعر الجزائري الذي استعاد مواقعه البطولية«(فاضل، 1980 :111) فيقول الشاعر مفدي زكريا في هذا الصدد من ديوانه اللّهب المقدّس الأبيات الآتية:(مفدي، ز.1961م: 51)

» إذا ذكر التاريخ أبطال أمة ❖❖ يخر لذكراك الزمان ويسجد
وإن تذكر الدنيا زعيما مخلدا ❖❖ فإنك في الدنيا الزعيم المخلد
فما خمدت نيران حربك لحظة ❖❖ وهيهات نيران الجزائر تخمد
حديثك تتلوه البنادق في الوغى ❖❖ نشيدا يغنيه الزمان نشيدا
وجيشك(عبد القادر) اليوم ظافر❖❖ يحطم هامات الطغاة ويحصد«

المنارة للاستشارات

فعلا لقد كانت صورة المجاهدين تنطق في شعر مفدي زكريا إذ نجد أن شعره فجر» بطولات ساحرة لامثالية وتجاوز الإحساس بالآلام الجسدية، واعتبر المعارك الضارية محافل، فلا بكاء على الشهيد، بل تشيعه الزغاريد«(فاضل، ن.1980م:112)، وهذا ما حدث أثناء مشهد تشييع البطل الشهيد "أحمد زبانه" أثناء تنفيذ حكم الإعدام عليه بالمقصلة، فكان أول شهيد يدشن آلة الموت في سجن"بربروس" سنة 1958م ضاربا بذلك أروع مثال في التضحية والصمود ،فيقول فيه الشاعر على لسانه (مفدي ،ز.1961م: 100).

»اشنقوني فلست أخشى حبالا ❖ واصلبوني فلست أخشى حديدا

وامتثل سافرا محياك جلادي ❖ ولا تلثم فلست حقودا

واقض ياموت في ما أنت قاض ❖ أنا راض، إن عاش شعبي سعيدا

أنا إن مت، فالجزائر تحيا ❖ حرة مستقلة، لن تبيدا«

ونجد الشاعر مرة أخرى يقدم العهود والمواثيق لشهيد الثورة "أحمد زبانه" فيقول: (مفدي، ز، 1961م: 12):

» يازبانا أبلغ رفاقك عنّا ❖ في السماوات، قد حفظنا العهودا

واندفعنا مثل الكواسر نرتل ❖ المنايا، ونلقي البارودا«

ب- مشهد ثقافة عشق الوطن:

وفي عشق الوطن نجد الشاعر مفدي زكريا يضرب لنا أروع النماذج الشعرية عن صدق الإحساس ومرارة التجربة التي عايشها أثناء حرب التحرير المباركة فيقول: (مفدي،ز، 1961م: 84)

»أدخلونا السجون ❖❖❖ جرعونا المنون

ليس فينا خائنون ❖❖❖ ينثني أويهون

أجلدوا....عذبوا....

المنارة للاستشارات

وأحرقوا....وأخرجوا...

لانمل الكفاح ❖❖❖ لانمل الجهاد

في سبيل البلاد«

كما يصرح الشاعر بوفائه اللامتناهي وإخلاصه لوطنه من خلال تقديم الغالي والرخيص في سبيل الجزائر فيقول: (مفدي، ز .1961م: 84)

» فداء الجزائر روحي ومالي ❖❖❖ ألا في سبيل الحرية

فليحي(حزب الاستقلال) ❖❖❖ و(نجم شمال إفريقية)

وليحيَ شباب الشعب الغالي ❖❖❖ مثال الفداء والوطنية«

وعليه يتحدى الشاعر لغة النيران التي سلطها العدو الفرنسي على الشعب الجزائري الأعزل ،ويصرح له أنه لايخشاه مادام في يعشق وطنا يسمى الجزائر فيقول الشاعر: (مفدي، ز. 1961م: 134)

» لغة القنابل ،في البيان فصحة ❖ وُضعت، لمن في مسمعيه صمام

و(لوافح) النيران، خير(لوائح) ❖ رفعت لمن في ناظريه ركام

و(روائح) البارود، مسك نوافح ❖ سجرت، لمن في منخريه زكام«

ويواصل الشاعر دفاعه المستميت في سبيل كرامة الجزائر ويصور لنا قيمة هذا الوطن المقدس في شعره مرددا (مفدي، ز .1961م: 55)

» وقيل الجزائر..واصغِ إن ذكر اسمها ❖تجد الجبابرة ساجدينا وركّعا!

إنّ الجزائر في الوجود رسالة ❖ الشعب حررها، وربك وقّعا!

إنّ الجزائر قطعة قدسية ❖ في الكون لحنها الرصاص ووقعا!

وقصيدة أزلية، أبياتها ❖ حمراء، كان لها(نوفمبر) مطلعا «

3- أثر المثقف الشّاعر في راهن الأمة الجزائرية:

لقد كرّس الشّاعر الجزائري"مفدي زكريا" جانبا كبيرا من إلياذته،ينتقد فيها الوضع الراهن ولم يترك شبابا، ولا قيادة ولا اختيارات

المنارة للاستشارات

إيديولوجية ولا صحافة ولا مثقفين،فكأنما يصور صورة سوداء لجزائر الاستقلال، بعد أن صور صورة مشرقة في ذهنه إبان الثورة ففي إطار التحذير من الأخطار الداهمة يعبر عن ارتداد الجزائريين ،والشباب منهم على وجه الخصوص- عن الدين تأثرا بالمد الغربي بدعوى التقدم، تأثرا بالإيديولوجيات المستوردة التي تحيد بهم عن الأصالة فيقول: (مفدي،ز .1972م: 104)

»أمانًا من الخطر الداهم ❖ ومن معول قاصم هادم

غزا المذهبيون عقل الشبا ❖ ب بمستورد آفن آثم

وزاغوا بهم دون إسلامهم ❖ إلى مذهب ليس بالسالم

ودسوا شيوعية كالوباء ❖ كما يصرف السم للطاعم

وقالوا الرجوع إلى الدين ❖ رجعي وأن الحياة مع القائم«

وفي التنديد بالساسة، والشباب الذي ترك الأصالة وباعها ولهث وراء الأفكار المستوردة،وهو يظهر تشاؤمه ويتحسر على الأماني التي كان الشعب الجزائري يحلم بها من صون للأصالة، كل ذلك في تحذير صارخ من المظاهر السلبية التي لم يكن يتوقع أن يعيشها الشعب بعد أن عاشها رازحا تحت لهيب نيران الاستعمار، حيث يقول "مفدي زكريا" في إلياذة الجزائر(مفدي 1972م: 105).

»وكيف يسوس البلاد غبي ❖ بليد أضاعا الضمير فضاعا

وكيف يصون الأصالة نشء ❖ وقد ساوموه عليها فباعا«

أكثر من ذلك يغرق الشاعر في التشاؤم فيرى أن هذا الاستقلال الذي حصلنا عليه لم يكن يستحق كل التضحيات والبطولات، بعد أن خارت عزائم المجتمع، وأصبح الرجال دمى تتحرك بخيوط خفية من أماكن مشبوهة ، ماتت الضمائر فالبريء يحمي المجرم، وكل ما ثار ضده الشعب

المنارة للاستشارات

في الاستعمار هللوا له بعد الاستقلال، وكأن الشباب أبناء صلب فرنسا ، يتمنَّون لو عادت إذن لأقاموا الأفراح بعودتها،أما أصحاب الرأي من القادة الذين يقدرون حجم التضحيات التي قدمها الشعب فداء للحرية فأحرى بهم أن يقيموا مأتما على شعبهم الذي ضاع ؛ "يقول (مفدي،ز. 1972م: 113)

»وتبا لمجتمع خائر ❖ يعيش الرجال به كالدمى

يموت ويقبر فيه الضمير ❖ ويحمي البريء به المجرما

تعالي فرنسا ادخلي بسلام ❖ فأبناء صلبك ملء الحمى

ويا قادة الشعب إن دام هذا ❖ أقيموا على شعبكم مأتما«

لقد أصبح المثقف الجزائري مهمشًا سياسيًا، بالرغم من مساهمته الفعالة في بناء الدولة الجزائرية المعاصرة، وتطويرها اقتصاديًا واجتماعيًا، ولهذا لم يستطع الخروج من قوقعته رغم قدرته على حل هذه المشاكل، فالنظرة الشاملة للمثقف الجزائري لم تتغير خاصة مع تزايد النخبة المثقفة،ومع ذلك بقيت الفرصة في المشاركة السياسية باتت ضئيلة جدا،وفي ظلّ هذا الوضع لم يبق أمام المثقف سوى المطالبة بحقه في التسيير ودوره في التنمية والبناء،ومن المعروف أنّ الشّعراء تحملوّا جزءًا كبيرا من الهموم ،والصراعات التي دفع أغلبهم ثمنها من حياتهم واستقرارهم النفسي على مرّ التاريخ الثوري الجزائري.

❖- التوصيات:

1- ضرورة البحث في الشّعر الثوري الجزائري من خلال إبراز دور المثقف فيه.

3- يجب التأكيد على دور المثقف التاريخي في عملية الحفاظ على التاريخ الفكري الثوري للأمة التي يدافع عليها.

المنارة للاستشارات

3- إبراز دور المثقف في حماية الوطن من كلّ الأخطار التي باتت تحيط به وتؤثّر عليه سلبا في تحقيق التفاعل الثقافي والفكري مع مجتمعه

❖- خاتمة الدراسة:

عموما من كلّ ما سبق ذكره عن أهمية الشعر الثوري نصل إلى ضرورة النهوض به إعلاميا وتاريخيا وثقافيا، من خلال المؤسسات الرسمية المحلية والدولية من أجل الارتقاء بهذا الإرث الفكري الذي هو ملك للإنسانية جمعاء،كما يعدّ البحث والتقصي في مسيرة شعر" مفدي زكريا" الثوري والمثقف أمرا لا مفر منه من أجل إظهاره تدريجيا على كلّ الأصعدة التاريخية والجمالية والتراثية لما في هذا الإرث من أهداف تجمع بني الشعب الجزائري،وتدافع عن دور المثقف في الدفاع عن مقدسات الوطن المادية والمعنوية في ظلّ أزمات الراهن العربي التي تشهدها الأمّة العربية الآن ضمن ما بات يسمى بنظرية المؤامرة.

الهوامش والإحالات:

(1) الكركي، خالد.1989م.الرموز التراثية العربية في الشعر العربي الحديث، ط1. بيروت. لبنان:دار الجيل.

(2) حمزاوي،سعيدة.2009م. في الأغنية الثورية الأوراسية.ع32.مجلة التبيين.الجزائر: منشورات الجمعية الثقافية الجاحظية.

(3)مفدي،زكريا.1961.اللّهب المقدس.ط1.بيروت.لبنان: المكتب التجاري.

(4) مفدي ،زكريا. 1972م.إلياذة الجزائر ضمن أعمال الملتقى السادس للتعرف على الفكر الإسلامي.مج01.الجزائر.

(5) مرتاض،عبد المالك. 2006م.مقدمة منهجية في دراسة الشعر الجزائري. مجلة دراسات جزائرية.ع3. الجزائر.

(6) سليمان،نبيل.1985م.أسئلة الواقعية والالتزام، .ط1.سوريا:دار الحوار للنشر والتوزيع.

(7) عامر،رضا. 2008م. مقاربة سيمائية في عنوان ديوان بسمات من الصحراء.مجلة الباحث.ع04.البويرة:منشورات جامعة البويرة.

(8)فاضل،محمد.1980م.الثورة والنضال في شعر مفدي زكريا. مخطوط رسالة دكتوراه. إشراف حامد حفصي داود. جامعة الجزائر.

المنارة للاستشارات

المنارة للاستشارات